مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 67 - 81

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

أزمة الوعي الديني في العالم العربي الإسلامي: الإصلاح والتنوير العقلي في فكر جمال الدين الأفغاني

The crisis of religious awareness in the Arab Islamic world: Mental reform and enlightenment in the thought of Jamal al-Din al-Afghani

طاه باه حليم بن هبري [1]*، أحمد باجي [2]

[1] جامعة مولود معمري بتيزي وزو (الجزائر)، مخبر تربية وعمل، halim.benhebri@ummto.dz

[2] جامعة مولود معمري بتيزي وزو (الجزائر)، ahmed.badji@ummto.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/30 تاريخ القبول: 2024/04/28 تاريخ النشر: 2024/11/10

ملخص:

التجديد والإصلاح في الدين: لا يعني تغيير أسسه أو لتعرف في أحكامه، وتجديد شيء ما لا يعني إزالته واستحداث شيء آخر مكانه بل تجديده يعني إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه وعدم المساس بها، وقد عرف عن تاريخ الدين الإسلامي ان كل مئة سنة يبعث الله من يصلح شؤون دين هذه الأمة، ومن بين المفكرين الإسلاميين في عصر النهضة العربية الإسلامية نجد جمال الدين الأفغاني الذى حاول أن يضبط أزمة الوعي الديني عند المسلمين ، وكذلك ضبط أسباب التخلف والتراجع ، واعتبار أن المسلمين عندما ابتعدوا عن دينهم تخلفوا وبالتالي لابد من العودة إلى الدين عن طريق الوعي به والعمل على الفهم الحقيقي له، من أجل الامتداد إلى جسر الحداثة واللحاق بالركب الحضاري .

كلمات مفتاحية: الدين، الإصلاح، التجديد، التنوير، الحداثة.

Abstract:

Renewal and reform in religion: It does not mean changing its foundations or to know its rulings and renewing something does not mean removing it and introducing something else in its place. It was known about the history of the Islamic religion that every hundred years God sends someone who will reform the affairs of the religion of this nation. When they moved away from their religion, they fell behind, and therefore it is necessary to return to religion through awareness of it and work on a true understanding of it, in order to extend to the bridge of modernity and catch up with civilization

Keywords: Religion, reform, renewal, enlightenment, modernity.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

ساد في تاريخ الفكر الاسلامي عدة تغيرات فكرية وسياسية وثقافية، وحتى في امتزاج الحضارة العربية الاسلامية بالآخر، منذ نزول الاسلام على سيد المرسلين محمد ﷺ وصولا إلى تاريخ الفكر العربي المعاصر، باعتبار أن النهضة الحديثة أي الفترة الممتدة من القرن 19 إلى القرن 20، عموما سميت بتاريخ النهضة العربية الحديثة، وكان اهتمام المفكرين والباحثين في هذه الفترة تحديدا لأنها كانت أهم اللحظات التاريخية التي سعى لها العرب المسلمين إلى النهوض، وحدوث ما تسمى بصدمة الحداثة، أين تطلع العرب المسلمين على الغرب، فظهرت اتجاهات فكرية، حاولت التغير في شتى المجالات للحاق بالركب الحضاري وخاصة ما شمل الإصلاح الديني والسياسي، واستوراد المنهاج الغربية للقضاء على التخلف والدخول في التاريخ والتأثير في الوجود ومن هذا المنطلق نتساءل:

يا ترى:

- **ما هي الأزمة الحضارية التي وقع فيها الفكر العربي الاسلامي في الفترة الحديثة؟ وفيم يتمثل مشروع جمال الدين الأفغاني في بعث الحركة الإصلاحية الدينية من أجل تحقيق التنوير؟**
- **وكيف يمكن بلوغ نهضة عربية إسلامية تنبع من الذات حسب مشروع الأفغاني؟**

والمنهج التي تتبعناه في سير هذا البحث هو: المنهج التاريخي والمنهج التحليلي، فالأول حققنا فيه المتابعة التاريخية لسير الفترة الحديثة في العصر الحديث وأهم التغيرات التاريخية وخاصة ما صاحب هذه الفترة من غزوات وضعف الدول وسقوط الخلافات واللجوء إلى الآخر وغيرها، أما المنهج التحليلي سعينا به إلى تحليل أفكار رواد النهضة وأهم مشاريعهم والأفكار المجسدة منها والمنتظرة اضافة إلى كيفية الخروج من الأزمة النهضوية

والهدف من الحديث عن الأزمة الدينية التي وقع فيها العالم الاسلامي في العصر الحديث هو العمل على فهم مشكلة التخلف التي أطالت العالم الاسلامي ومحاولة ابتعاث الفهم الصحيح للدين، من أجل بلوغ التنوير العقلي والعمل على الالتحاق بالحداثة.

1. مفهوم الإصلاح الديني :

كثيرا ما يتردد مصطلح التجديد في الأبحاث العلمية الفكرية الحديثة، حيث يقصد به في الغالب الإصلاح الديني، فنجد أن الحركات التجديدية التي أطالت عمر النهضة العربية فدعت إلى

ضرورة تغيير الأفكار والمعتقدات الدينية التي سادت العصر، وذلك بالدعوة إلى ضرورة التجديد في فهم العقيدة الدينية للفكر الاسلامي والتجديد والإصلاح في الدين: لا يعني تغيير أسسه أو التعرف في أحكامه، وتجديد شيء ما لا يعني إزالته واستحداث شيء آخر مكانه بل تجديده يعني إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه وعدم المساس بها". (القرضاوي، 2008، ص.100)

ويعود ظهور مصطلح الإصلاح الديني في تاريخيه إلى عصر النهضة الأوروبية reformations بحيث دخل هذا المصطلح في التداول لوصف الحركات الدينية التي اجتاحت أوربا في القرن السادس عشر ميلادي، إذ كانت هناك دعوات لإصلاح الكنيسة وتخليصها من الشوائب والممارسات الخاطئة، بتمسكها وحدها في تفسير أحكام الدين وتطبيقاتها على النحو الذي تراه مناسبا فعمل رجال الإصلاح المسيحين على تقويض سلطة الكنيسة وإعادة الدين إلى مهمته الأصلية والإيمانية، ووضع حد للخرافة وغيرها. (الوائلي، 2018، ص.11)

على نفس الطريقة اهتم علماء وزعماء الإصلاح في العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث على إرجاع الفهم الصحيح للدين الإسلامي كما عمل الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس وغيرهم.

1.1. الإصلاح الديني في العالم الاسلامي (العصر الحديث):

ولو أسقطنا مفهوم الإصلاح أو التجديد في الفكر العربي الاسلامي فقد كان الدافع الداخلي وهو انحطاط الدول الاسلامية وتدهور احوال الخلافة العثمانية، ومساهمة الحركات الاستعمارية فيها فيحقق العالم الغربي (لوثيروب- ستو دارد) حالة العالم الاسلامي الاجتماعية بعد وخاصة المرحلة التي دخل فيها المستعمر وتوغل في العالم الاسلامي في القرن الثامن عشر فيقول:

كان العالم الاسلامي في القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ومن التدني والانحطاط أعظم دركة، وطبعت الظلمة كل صقع من أصقاعه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشي ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي واستطرقت الأمم الاسلامية في اتباع الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات الجهل الضئيلة وانقلبت الحكومات الاسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، فليس يرى في العالم الاسلامي ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين، كسلطان تركيا وأواخر ملوك المغول في الهند يحكمون حكما واهنا، أما الدين

فقد غشيته غاشية سوداء فلبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة من الخرافات وقشور الصوفية وكثر كثيرا الأدعياء والجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاونية والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات") (طهاري، 2007، ص.25)

كل هذه الظروف جعلت العالم الاسلامي يفقد صورته الأولى ويصبح من الدول الضعيفة التي ليس لها حول ولا قوة، وفي مقابل هذه الهزات والصدمات في العالم الإسلامي في مقابل الغرب الذي حقق حضارة راقية قوية تتطور في كل يوم أكثر فأكثر فيما كان العالم الاسلامي يسري إلى جهة الهبوط والتراجع فوجد الغرب من ثم الباب مفتوحا للاستيلاء والاستعمار فدخل هذه الدول الاسلامية واحتل أكبر مراكز حضارتها (فلسطين، بغداد، ومصر) ولان الدين الاسلامي يتصل بالواقع اتصالا عضويا كان من الطبيعي أن تنشأ إلى جانب ثقافة وحركات الاستسلام ثقافات وحركات تشجع على التمرد والعصيان وهو ما حدث خاصة منذ بدا انهار الحكم العثماني ودخول الغزاة الغربيين إلى العالم الاسلامي. (بركات، 1986، ص.266)

فمر من خلال هذا بمرحلة انتقالية واجه خلالها تحديات مصيرية، نشأت في إطارها حركات الإصلاح الديني مستنكرة للواقع الذي بلغه العالم الاسلامي ساعية من خلال عملها إلى التغيير.

هذه الحركات الإصلاحية في واقع الأمر مجموعة من الأفكار والمناهج والأهداف التي تتخذ الدين الاسلامي كمرجعية أساسية لها، وإذا كنا قد اعتبرنا ان الاستعمار هو العامل الاول والاساسي في انحطاط الامة فإن هذه الحركات كانت هي بمثابة منبه للدول الاسلامية العربية في العصر الحديث بتدارك الوضع الذي آلت إليه.

فقد قامت الحركات الإصلاحية مدركة جذور الإشكالية في سقوط حضارة الأمة تكمن في ذهاب الروح الحقيقية للدين في أروقة التاريخ وعقده ومن ثم مسخه وتشويهه وتحويله، لا تحوله إلى كيان آخر يمارس على أنه الدين الإسلامي، ففارق كبير بين الإسلام في فجره الأول كرسالة روحية متعالية، وبين الاتجاهات الإيديولوجية التي تشكلت فيما بعد، وحاولت احتكار الرسالة لمصلحتها من أجل ترسيخ هيمنتها وسيطرتها. (الجبران، 2002، ص.31)

1.1.1. الحركات الإصلاحية في العصر الإسلامي الحديث:

تعددت الحركات الإصلاحية في العالم الاسلامي، وكل اتجاه اصلاحي له أسلوبه ومنهجه وهذا حسب البنية وطبيعة التحديات التي تواجهه، وكان التاريخ الأول للحركات الإصلاحية الدينية في منطلقها مع الإمام ابن تيمية (1328/1263م) الذي كان له دور كبير في الدفاع عن الاسلام، ويعتبر بأن هناك علاقة وطيدة بين الدين والأمة والسياسة وبالتالي فإن المحافظة على تقدم الأمة وتطورها مرهون بالعودة إلى الإسلام الأول ""**لم تكن الأمة في الصدر الأول تعاني لأن الناس يتمسكون بالتوحيد الصحيح ...فقد كانت الفضيلة الفردية كفيلة بالمحافظة على الترابط والتناسق في المجتمع دون الحاجة إلى الإكراه أو القوة** "" (لاووست،1995، ص 170) ثم اقتدت على طريقته الإصلاحية الحركات الأخرى في العصر الحديث، حيث كان في زمانه يدعو إلى التجديد الروحي والاجتماعي من خلال الرجوع للأصول الدينية الصحيحة (الكتاب والسنة) وكذا نبذه الخرافات والبدع التي الحقت بالدين فأفسدت صورته الطاهرة النقية وركزت دعوته على فتح باب الاجتهاد واسعا وحارب الجمود والتقليد التعصب فكان من خلال هذا من أبرز الذين سعو إلى ابداع مشروع فكري لتجديد الدين الاسلامي كي تتجدد به دنيا المسلمين. (عمارة، 2007، ص.16)

وقد كانت أولى الحركات الإصلاحية مع محمد عبد الوهاب، إضافة إلى ظهور مصلحين آخرين في العالم الاسلامي، الذين عملوا على تغيير واقع الدين الاسلامي وحاولوا ارجاعه إلى الفهم الصحيح للدين منهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجزائر مع عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي ومبارك الميلي إضافة إلى الحركة الإصلاحية في مصر مع محمد عبده وكذلك في تونس نجد الطاهر بن عاشور وخير الدين التونسي في تونس، و كان تركيز هذه الحركة منصبا على إصلاح العقيدة والدفاع عنها وتنقيتها من الظواهر والمفاهيم والسلوكيات التي تناقض مبدأ التوحيد لاعتباره أن صلاح العقيدة هو صلاح كل شيء، وفسادها هو فساد كل شيء ومن ثم لم يلتفت كثيرا إلى المدينة الحديثة واثرها، أو موقف المسلمين منها وقد انتشرت دعوته هذه انتشارا واسعا في كافة أنحاء العالم الإسلامي مخلفة آثارا في اقطار إسلامية بعيدة ومنها تكونت الحركة السلفية التي نقلها محمد بن علي السنوسي في شمال افريقيا وحركة المهدية في السودان التي تزعمها محمد بن احمد العبد الله وغيره. (المروزوقي، 2001، ص.27)

إضافة إلى الجهود التي قام بها رشيد رضا عندما عمل على إعادة الاعتبار للوهابية وكان أقل تسامحا أمام التنوّع الدين، وحاول أن يرد الاعتبار للوهابيين لأسباب ذات أهمية سياسية اجتماعية في المقام الأول، لأن هناك ظروفا في القرن العشرين خاصة ما عملت عليه الحركات الاستعمارية لتشويه الاسلام أصحبت الوهابية مدعاة ضرورية لنصرة الوهابية حتى يحافظ الإسلام على أصوليته. (لوزيير، 2018، ص.179)

2. أزمة الوعي الديني في العالم العربي (جمال الدين الأفغاني 1897/1839)

في بداية تاريخ المشروع الإصلاحي في العالم العربي، كانت الارهاصات الاولى لـ: محمد بن عبد الوهاب في محيط الجزيرة العربية وما جاورها من بلدان، حيث عمل على إصلاح العقيدة، على خلاف مدحت باشا عمل على إصلاح الإدارة والحكومة والسلطان ونظام السياسة في البلاد.

1.2. مشروع جمال الدين الأفغاني الإصلاحي:

تعود أصول الأفغاني إلى الأسرة الفاطمية أي أبناء عليّ بن أبي طالب الحسن بن عليّ، شريف النسب ورفيع المكانة، حيث كان أهل بيته سادة على عمل من اعمال بلاد أفغانستان.

فتمثل مشروع الأفغاني في إصلاح العقول والنفوس أولا ثم إصلاح الحكومة عن طريق ربطه بالدين، إذ يقول الأفغاني في هذا الصدد:

" إن القوة النيابية لأي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلاّ إذا انبعث من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير، أو قوة أجنبية محركة له، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه" فالعقول والنفوس أولا، والحكومة ثانيا. (أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، 2005، ص.59)

فيرى الأفغاني أن أي مشروع إصلاحي في الأمة لا يستقيم إلاّ إذا كان هناك توافق وتكامل بين الفرد والحكومة، فماذا تنفع الحكومة إذا كان الشعب غير صالح، فالصلاح يتم بصلاح كلا الطرفين.

* كان الاختلاف الحقيقي على شخصية الأفغاني من حيث النسب أو المذهب أو البلد، فقد رويت قصص عن نشأته ما يرى خصومه، على أنه فارسي وليس أفغانيا إضافة إلى ادعائه من أنه ينسب إلى آل البيت أي بالضرورة يكون شيعيا.

تعود بوادر المشروع الاصلاحي للأفغاني في الهند، إلا أن سلطات الاحتلال الانجليزية أحالت دون ذلك. (حوراني،1997، ص.120)

2.2. المشروع التعليمي للأفغاني:

أسس المدرسة النظامية التي كان يعلّم فيها التصّوف والكلام والفلسفة الإسلامية، فيأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم الى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب ولا يستعيدهم الكتاب، ويسموّن عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة ذاتها، ولو خالفت الألفاظ والجمل.

وعمل على الاشتغال بتوعية الجمهور المصري ويحضر منابر علمه العديد من الكتاب والأدباء والروائيين، فيوضح لهم سبب الانحطاط والغفلة حتى قيل إنه حوّل من مجرى الأدب والفن من سيطرة الأرستقراطيين في مدحهم ووصف مكانتهم إلى وصف الحال والأوضاع الاجتماعية وقد كانت طريقة الأفغاني في بناء هذا المشروع التعليمي بـ:

- كوّن جماعة من الكهول والشبّان حبب إليهم الكتابة ورسم لهم خطتها وأوحى إليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها، وشجعهم على إنشاء الجرائد يكتب فيها، ويوّلي فيهم من رأى منهم القدرة على ذلك، مثال: تشجيع الأديب المصري ساعد على إنشاء جريدة سماها بـ: " مصر" وكان هدف هده الصحيفة ايقاظ العرب من غفلتهم فيكتب:

مثلا: مقالا بعنوان " أوربا والشرق"، " قضيً على الشرف أن يهبط بعد الارتفاع ويذلّ بعد الامتناع، ويكون هدفا لسهام والمطامع والمطالب تعبث به الأيدي من كل جانب". (أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، 2005، ص.70)

- أقام مدرسة شعبية التي كان غمارها الأحاديث والجلسات العلمية في المقهى وبيوت الزيارة.

أيقن المصلحين الاسلامين أن حقيقة الدين لن تتم الا بتجريد الفكر الاسلامي من الخرافات، والتشويهات التي علقت به، فضلا عن محاربة الاستعمار الأجنبي، والعمل على تحرير العالم الاسلامي من سيطرته، والإفادة من العلم والتقنية الحديثة، في الإصلاح مع رفض محاكاة الغرب فكان هذا هو الهدف الرئيس الذي سعى إليه المصلحون الإسلاميون إلى تحقيقه، وقدموا خلاصة جهدهم الفكري للوصول إليه.

وصف جمال الدين الأفغاني، بأنه من أبرز رواد اليقظة الاسلامية الحديثة، وأشهر رموز الصحوة الإسلامية، ومن اهم مجددي الفكر الإسلامي الحديث.

تعد أفكار الأفغاني، امتدادا للحركات الإصلاحية التي سبقتها المهدية، السنوسية، التي تهدف إلى المحافظة على العقيدة الاسلامية، وصونها من التشوهات والانحرافات، وبناء مجتمع إسلامي موحد ومتماسك، له القدرة على التعامل مع معطيات الخضارة الحديثة، من دون الاخلال بهويته الاسلامية، ويمكن القول إن أفكار الأفغاني، ومنهجه الفكري، كان ثورة عبَرت عن حاجة المجتمع الإسلامي للأخذ بأسباب الحضارة والمدنية مع العودة للأصولية إلى الكتاب والسنة والشورى والمبادئ الدستورية، ضمن شخصيته الإسلامية المستقلة. (الأفغاني، 1979، ص.232)

كانت حركة الأفغاني ذات طابع فكري واجتماعي معا، فنراه يسعى إلى إيجاد نهضة وصحوة في أفكار المسلمين، وفي نظم حياتهم، ومن أجل ذلك لم يتوقف في مدينة أو دولة إلا بعد أن يطلع عن كثب على واقع تلك البلاد، ويحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه من شؤونها، حتى أنه انضم إلى صفوف الجيش ليحتك بالجند وينشر أفكاره في صفوفهم وكان لأفكاره الإصلاحية قبول لدى الفئات ذات الخلفيات الثقافية والاجتماعية المختلفة، وقد وصفت تلك الأفكار بأنها ثورية، ولا سيما بعد دعوته إلى استخدام العنف في إحداث التغيير الجذري للنظام السياسي المصري.

3.2. سبل الإصلاح والتغيير الاجتماعي والسياسي:

صرح الأفغاني بأن هناك خطرين، يهددان العالم الاسلامي، الخطر الخارجي، ممثلا بالاستعمار، ونزعته للسيطرة على العالم الاسلامي، والخطر الداخلي، ممثلا بالجمود واستبداد الحكام، لذلك حاول في كتاباته وخطبه أن يقنع المسلمين بأن الاسلام كعقيدة وايديولوجية يستطيع أن ينقذ المسلمين ويحررهم وأن ينهي الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي، وركز على أن الإسلام يعطي للعقل والبرهان والاستدلال أهمية خاصة، لأن الإسلام دين العلم ودين العمل ودين الإصلاح والكفاح ضد الفساد، ولكي يثبت (الأفغاني)، ذلك بدأ بالدفاع، عن الاسلام ضد الشبهات التي طرحها المستشرقون آنذاك، والتي تتهم الاسلام بأنه دين يؤمن بالجبر، وانه دين القضاء والقدر، دين يقيد فكر الإنسان وحركته، مما أدى إلى انحطاط المسلمين وتأخرهم فنشره في مجلة العروة الوثقى، مقالا دافع فيه عن نظرية القضاء والقدر في الإسلام، وأثبتت بأنهما بمحتواهما الاسلامي، لا يعدان من

عوامل الانحطاط بقدر ما يعدان من عوامل الانحطاط بقدر ما يعدان من عوامل التقدم والرقيّ. (واثقي، 1968، ص.45)

في المقابل دعي الأفغاني إلى تحرير الفكر الديني من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، ليتخلص المجتمع الإسلامي من الجمود وتقليد الأعمى، دون مراعاة لطبيعة العصر وملابساته.

فيصفه تلميذه " محمد عبده" في هذه الجلسات العلمية التعليمية التوعوية قائلا: " كان السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريديها وغير مريديها، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبة إلى ما يريد، وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك، لأنني تؤثر فيَ حالة المجلس والوقت، فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محَلا قابلا واستعدادا ظاهرا.

فكان سر هذه المدرسة التي تتميز بالسهر والسمر والحديث، تنتقل فيها الأفكار ومعانيها وتحقيق المرغوب فيها وإصابة هدف المريد دون رسميات المدارس التعليمية.

ثم انتقل إلى تولى مناصب الوزارات في مصر ثم انضم إلى المحفل الماسوني الأسكتلندي لإيصال أفكاره إليهم. (أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، 2005، ص.74)

وكان الهدف من المشروع التعليمي في المدرسة النظامية التي أقامها الأفغاني وخاصة في مصر هو: توسيع عقول الطلبة، وتفتيح أفاق جديدة في فهم العالم وتعليم الحرية في البحث، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم على حساب النص موافقة له أو مخالفة.

نظر الأفغاني لتحرير الشعب من العبودية وإبراز العلاقة الموجودة بين الحاكم والمحكوم حتى يتعرف كل واحد على حقوقه وواجباته، حتى يستطيع الشعب التصدي للحاكم والجرأة على معارضة بعض الأحكام السياسية. (أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، 2005)

3. الوعي الديني عند الأفغاني:

وفرّ الأفغاني في شطرا كبيرا من حياته على الدفاع عن البلدان الاسلامية المهددة بخطر التوسع الأوروبي، إلا أن تفكيره لم يقتصر على السياسة، فالقضية الأساسية على متمحورة على كيفية اقناع المسلمين بأن عليهم أن يفهموه دينهم الفهم الصحيح، وأن يعيشوا وفقا لتعاليمه، إلا أن الضغط الأوروبي على بلاد المشرق، فعرف الأفغاني أن أي قضية مهما كانت، فقد عرف هذه الحقيقة في كل مرحلة من مراحل حياته في تدخله في سياسة الأفغان وكان العدو الحقيقي لفكر المسلمين وأعرافهم

الدينية دولة الإنجليز التي اشتغلت على محاربة الفكر الاسلامي، فالحرب الإيديولوجية الانجليزية كانت أشد خطرا من الحرب العسكرية.

والسبب الحقيقي في انهزام المسلمين فذلك عائد إلى انقسام المسلمين وجهلهم وافتقارهم إلى الفضائل العامة، وأن ضعفها راجع إلى الجهل، والبحث عن الكيفية التي يمكن للدول الإسلامية أن تحاشي فنون وأعمال الدول الأوروبية، ليس بالتقليد العشوائي، وإنما روادها نظرة فكرية شاملة، بل نظاما للخلق، فالفساد عمّ المجتمع، ولا يمتلك أدوات التفكير والفهم. (حوراني، 1997، ص.123)

الشيء الجديد في تفكير الأفغاني هو معرفة الفهم الصحيح للدين فلم يعد الاسلام كدين ما عناه الآن، بل بالأحرى الاسلام كمدينة، فهو يعتبر أن الغاية من أعمال الإنسان ليست خدمة الله فحسب، بل خلق مدينة إنسانية مزدهرة في كل نواحيها، كانت بالحقيقة فكرة المدينة من بذور الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر.

كان الهدف من مشروع المدينة هو إعطاء معني التقدم الذي كان ينشده ويسعى إليه " الشعب الناشط لتغيير حاله".

وكان هدف هذا المشروع:

- التطوير الاجتماعي ويعني زيادة القوة الاجتماعية والرفاهية الاجتماعية.
- التطوير الفردي ويعني تطوير مواهب الإنسان ومشاعره وأفكاره، وبهذا التنظير كان يرى الأفغاني، أن المنطلق الذي ابتدأت به الديانة الإسلامية في أوج مجدها.

كان التطور الحقيقي: على المستوى الاجتماعي والفردي والإيمان بالعقل والوحدة والتضامن ثم تلاها الضعف بعد ذلك فالعلمية التي يمكن تحقيق الأوج الآن يتمثل في " قطف ثمار العقل" أي علوم أوربا الحديثة، وبإعادة بناء وحدة الأمة.

وبهذا ننفي الاعتقاد القائم السابق على أن التيار الإصلاحي في العالم الإسلامي وتحديدا مدرسة الأفغاني، لم تلغي علوم الغرب ودورها في التطوير بل علينا الأخذ منها ولكن يتعقل على ما يرفع مجد الأمة، وليس ما ينحط بها أو يفسدها.

شدد الأفغاني فيما يخص الاختلاف الديني والطائفي ويعتبر الخصومات العقدية هي التي تقيم حواجز سياسية فيما بينهم، وأن يعتبروا بألمانيا التي فقدت وحدتها الوطنية جراء اهتمامها بالخلافات الدينية، فمحاولة الأفغاني كان يفكر بإنشاء دولة إسلامية واحدة، أو يبعث خلافة العصور الأولى الموحدة، فهو عندما يتحدث عن الخلافة، يعني بها أما نوعا من السلطة الروحية أو مجرد أولوية شرقية، وعلى حسب التنقلات بين البلدان التي اشتغل عليها الأفغاني كان يبحث على حاكم عادل يعترف بسيادة الشريعة، يمكنه من إحياء الإسلام، ولكن آماله كانت تخيب كل مرة. (حوراني، 1997، ص.126)

1.3. الوحدة الاسلامية:

يعني المفكر الاسلامي بالوحدة الاسلامية تضامن الأمة وأفرادها بمختلف الوظائف التي يؤديها هؤلاء، والشعور بالمسؤولية لدى كل من أبنائها تجاه الآخرين وتجاه المجموع، والرغبة في العيش معا في وحدة اجتماعية، وهو التعصب الذي يقصده التعصب لداعي الأمة الواحدة وليس لداعي الطائفية والاختلافات الفكرية أو المذهبية، فنجد أن التعصب القومي هو الذي ينمي الوحدة ويشمل أفراد الأمة مثلما هو حادث عند بلاد الغرب، وهو الذي يؤدي للتقدم، وإذا ما أخذت الأمة بالتعصب الديني فهو السبيل للتفكك والاندثار، ويكون سببا حقيقيا للتخلف.

يفضل الأفغاني بالقول على أن الدولة يجب أن تقوم على العقل البشري كما أنه يقر بأنه من الممكن أن تقوم على أساس الشريعة الإلهية، فيربط في هذا قوله: " إن الجسم الاجتماعي لا يحيا بدون روح، وأن روح هذا الجسم هي الملكة النبوية أو الملكة الفلسفية أما الأولى فهي هبة من الله بينما الثانية تنال بالتفكير والدرس". (حوراني، 1997، ص.27)

تعد اللغة من بين الوسائل والروابط التي توطد العلاقات بين البنيات الاجتماعية فلو أن الدولة العثمانية أقامت اللغة العربية، على أنها أساس الدولة ولغتها الموحدة، ورأى الأفغاني أيضا أن الرابطة الدينية لا تتعارض مع الروابط القومية القائمة بين أقوام ينتمون إلى أديان مختلفة.

2.3. التضامن الطبيعي في تشكيل الوحدة لدى المسلمين:

يقصد الأفغاني بالتضامن الطبيعي الوحدة الحقيقية بين المسلمين قائم على الاعتقاد الديني المشترك، فإذا انعدم هذا الاشتراك انحل المجتمع وباعتبار العلماء لديهم صلة وثيقة بالخلافة السياسية في شؤون الحكم انفصلوا عنها بانفصال الخلافة العباسية إلى دويلات وإمارات، وتحصل أن

كل عالم له مقام في إمارة خاصة، ومع مرور الزمن انقسموا هم أيضا عن وحدة المعتقد وتشتت الرأي وانحرفوا من الحقيقة إلى الضلال، وكانت النتيجة، أن تفككت الجامعة نفسها.

في هذا الوضع المشتت والمتردي سارع الأفغاني إلى بعث الروح الإسلامية الأولى التضامنية، وليس هناك من طريق مختصرة لإحياء الاسلام، وما الصحف والمدارس وحدها بكافية لتحقيق هذا الهدف.

إن الصلاح الحقيقي للاسلام لا يمكن أن يتم ما لم يرجع العلماء إلى حقيقة الدين، وما لم تقبلها الجماعة بكاملها وتعيش وفق لها، بل وأيضا الأخذ بعلوم أوربا، وكانت هذه المحاولة للأفغاني، المزج بين إعادة بناء الإسلام من جديد ونقض ما قبل الإسلام من طرف الدول الأوربية.

{وعندما يقول بأنه لا يمكن للمسلمين استعادة قوتهم ومدينتهم إلا بالرجوع إلى الإسلام، فإنما يقول ذلك بإلحاح أشد، لأنه كان قد أصبح من المسلّم به لدى الفكر الأوروبي، أن الدين على العموم والاسلام، على الخصوص، يقتل الإرادة ويقيّد العقل، وأن التقدم لا يتحقق إلا بالتخلي عنه، أو على الأقل، بفصل الدين عن الدنيا فصلا تاما} .(حوراني، 1997، ص.129)

3.3. دعائم مشروع الأفغاني في محاورة المستشرق الفرنسي رينان:

ألقي المستشرق الفرنسي "أرنست رينان" محاضرة له عن "الاسلام والعلم" في السوربون عام 1883م، قال فيها بأن الإسلام والعلم لا يلتقيان، يقول {كل من كان مطلعا بعض الاطلاع على أحوال زماننا يشاهد بوضوح انحطاط البلدان الإسلامية الحالي، وتقهقر الدول الخاضعة لحكم الاسلام، وانعدام معالم الفكر لدى الشعوب التي اقتبست عن هذا الدين وحده ثقافتها وتربيتها. فجميع من يؤموّن الشرق أو افريقيا يدهشهم ضيق التفكير المحدود بصورة حتمية لدى المؤمن الحقيقي، وذلك الطوّق الحديدي الذي يطوّق رأسه، فيجعله مغلقا بإحكام في وجه العلم عاجزا عن تلقن أي شيء أو الانفتاح أن أي فكرة جديدة}. (حوراني، 1997، ص.130)

في محتوى هذا النص يقر "رينان" بعدم إنتاج العرب للفلسفة والفكر، وإن كان لديهم أي علم فإنه يكون باللغة ظاهرا أو أصول يونانية ساسانية باطنا، فالطوى الحديدي يغيره الحاجب عن الفعل العربي ويقصد به الدين، فالصورة التي استدل بها هي وضع الدول العربية في الفترة الممتدة القرن 19م، انتشرت صراعات مذهبية دينية وفقهية، فاهتم المسلمون بسفاه الأمور وتركوا أعظمها وهو دليل على انحطاط الأمة وفساد المجتمع.

ويرى بأن هذا الوضع يؤدي بالاسلام إلى نهايته، وخاصة مع تطور العلوم في أوربا وازدهارها، فلاحظ بانبهار مفكريّ العرب أمثال الطهطاوي الذي أتى باريس فتوقف قائلا مشدوها ومندهشا بالعلم وبالحضارة والفكر " إن الشباب الشرقي الذي يأتي المدارس لينهل منها العلوم الأوروبية، يعود حاملا مع هذه العلوم ما هو ملازم لها وغير منفصل عنها: الطريقة العلمية، والروح التجريبية، وحس الواقع، واستحالة الإيمان بالتقاليد الدينية المكونة، بصورة واضحة بمعزل عن كل نقد" (حوراني، 1997، ص.130)

لو نظرنا من زاوية التاريخ لوجدنا أن قيام الدولة الاسلامية في الأندلس يعكس تماما ما هو حادث عند العرب والمسلمين في عصر النهضة العربية، فكان الأوربيون يسافرون إلى الأندلس وينهلون منها علوما وأخيارا ومعارف تصقل منها شخصية الفرد الأوروبي فتتشكل القوى العظمى بتشكل العلم عن طريق حاطه العقل بحكمة الشرع.

يعتبر " رينان" أن الوحي أو الدين بصفة عامة " المسيحية والاسلام" سيان أو تأثير واحد، يكيلان العقل البشري بالوحيّ الفائض للطبيعة والإيمان بالغيبيات والماورائيات، فكان رد الأفغاني على أن مسألة الدين هذه، هي الأساس الأولى الذي يخرج الإنسان من بربيته، والذي إذا لم يفهم ما يقصد بأحكامه وقواعده أعاد الإنسان إلى قيوده، هذه بالذات المشكلة التي وقع فيها المسلمون، في بداية الرسالة فهمت قواعدها وقوانينها فتحرر المسلمون من جهلهم وتخلقهم، فعندما أسيء فهم الرسالة عاد المسلمون إلى القيود والجهل. (حوراني، 1997، ص.130)

فشبه الأفغاني، تاريخ الدين المسيحي مثل الإسلامي، فقد أعيد الدين المسيحي إلى نصابه الصحيح، كما جرى في الدين الإسلامي فإنه لقرون طويلة ينتظر "إصلاحه"، ويترقب قيام لوثر جديد فيه. (كثيرا ما كانت هذه الفكرة تراود الأفغاني، ولعله كان يأمل القيام بنفسه بهذا الدور).

* كان مشروع الأفغاني أنه حاول أن يقدم إسلاما يحمل في طياته مرّة أخرى رسالة عالمية، فالإسلام متفتح على جميع الحالات العلمية التي يدعى بها بعض المفكرين أنه دين مغلق على ذاته مثلما هو حادث في الديانة المسيحية، فكانت محاولة الأفغاني أن يثبت أن جوهر الإسلام إنما هو جوهر العقلانية الحديثة نفسها، على أن مثل هذا الإثبات كان أمرا محفوفا بالمخاطر.

سعى الأفغاني إلى تفسير الوحي تفسيرا عقليا، ولا تستدعي الصراعات المذهبية والطائفية، وظهور العقيدة الجديدة "البهائية" فيرى البهائية خطرا على الأمة، لأنها على غرار فروع الشيعة الأخرى تستعيض عن عقيدة النبوة بعقيدة الانبثاق، وكذلك هاجم الأفغاني الحركة العصرية التي أطلقها أحمد خان، فقد دعا السيّد أحمد هذا، بعد زيارة قام بها إلى انكلترا في السبعينيات، إلى إسلام جديد أطلق الناس عليه اسم " النيشرية" وهو مأخوذ من كلمة "نيتشر" الإنجليزية ومعناها الطبيعة، وكان فحوى هذه الدعوة أن القرآن، لا الشريعة، هو من جوهر الإسلام، وأن تأويل القرآن يجب أن يتم وفقا لمبادئ العقل والطبيعة، وأن النظام الخلقي والحقوقي يجب أن يكون قائما على الطبيعة، وقد اطلع الأفغاني على هذه العقيدة عندما كان منفيا في الهند بعد 1879م، ثم ردّ على الدهريين " فلسفة داروين".

كان الصراع بين الدين والفلسفة قائما منذ الأزل بين الديانات السابقة، فكانت العلاقة أنه كلما انتصر الدين قضيّ على الفلسفة أو العكس بالعكس، لذلك سيستمر الصراع بينهما إلى الأبد، ويكون صراعا مستميتا، لن ينتهي بتغلب الفكر الحر، لأن العقل غير مستحبّ لدى الجماهير، ولأن تعاليمه لا تفقهها سوى النخبة، ولأن العلم، مهما كان جميلا، لا يسعه إرواء عطش البشرية إلى المثل العليا القائمة في حقول بعيدة غامضة يعجز الفلاسفة والعلماء عن مشاهدتها أو اكتشافها.

يرى الأفغاني أن جوهر الاسلام إنما هو جوهر العقلانية الحديثة نفسها، على أن مثل هذا الإثبات كان أمرا محفوظا بالمخاطر، وقد شعر بعض معاصري الأفغاني بهذا الواقع، فاتهموه بأن كان مستعدا لتضحية حقيقة الاسلام في سبيل رفاهية المسلمين الوهمية.

تلك إذن منجزات جمال الدين الأفغاني في تحديث فهم الدين الاسلامي من أجل وضع الأسس ورفع الدعائم لبناء عالم عربي متقدم، وذلك لوجوب وجود تغييرات قد اقتضتها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي نجمت عنها، وإذا ما تابعنا المنحى التطوري للأساس العقيدي الذي أثبته مفكرو الإسلام، المحدثون أساسا للتقدم فيظهر أنه نتج عنهما انتهاء مفهوم التوحيد الكلاسيكي في الأعمال الحديثة، وظهور مفهوم جديد لعلم الكلام، وأما الدين نفسه فقد أصبح ذا وظيفة اجتماعية صريحة اتخذت أحيانا شكل الوظيفة السياسية الخالصة. (جدعان، 1988، ص.ص.549-550)

خاتمة:

وكخاتمة لهذا البحث الذي كان عنوانه "أزمة الوعي الديني في العالم العربي الإسلامي، الإصلاح والتنوير في فكر جمال الدين الأفغاني" كان بمثابة حوصلة عامة واستنتاج لما مرّت به فترة النهضة العربية الحديثة فكما أفاق العرب من غفلتهم سعت مذاهب فكرية وثقافية وتربوية واجتماعية إلى تغيير الوضع، فكان الإصلاح الديني مع جمال الدين الأفغاني الذي سعى إلى إيضاح مسألة كيفية فهم الدين وعقلنته والقضاء على الأوهام والخرافات الدينية ، إلاّ أن مشروعه قد أنتج أهدافا إيجابية، إلاّ أن الطوائف الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث قد أفسدت ما كان يريده التيار الإصلاحي تحقيقه، وإذن أزمة العقل الإسلامي أن الفرد المسلم لم يفهم دينه على حقيقته وبالرغم من الجهود المضنية التي قام بها الأفغاني إلا أن الوضع المتردي والانحطاط هو الذي ساد على المسلمين فكانت تبعات آثاره السلبية إلى اليوم، وإن هذا الوضع ساد إلى اليوم نتيجة تخلف العرب وسيطرة الثقافة الجاهزية... وخاصة من كسرها التيار الذي يقال عنه سلفيا وهو في أصله لا يمت بأي صلة لأهل السلف بل هو في النهاية تيار غربي، عرف كيف يحطم المسلمين وسياسة فرق تسد. وإذن لما أُغلق باب الاجتهاد والإبداع أدى بالأمة إلى الضياع وعدم فهم دينها على حقيقته أصبحت أمة ضعيفة قبل أن كانت من أقوى الأمم.

قائمة المصادروالمراجع:

1. الأفغاني جمال الدين، (1979)، الأعمال الكاملة ت: محمد عمارة، (ط1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
2. أمين أحمد، (2008)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي بيروت –لبنان
3. أبو يعرب المرزوقي، (2006)، فلسفة الدين من منظور إسلامي، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت –لبنان
4. الجبران عبد الرزاق، (2002)، عليَ شريعتي وتجديد التفكير الديني، (ط1)، دار الأمير، القاهرة
5. القرضاوي يوسف، (2008)، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، دار الطليعة للنشر والتوزيع، القاهرة
6. المرزوقي جمال، (2001)، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المعاصر، (ط1)، دار الآفاق العربية، مصر
7. بركات حليم، (1986)، الإصلاح الديني، (ط3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت
8. حوراني ألبرت، (1997)، الفكر العربي في عصر النهضة، (ط1)، دار نوفل، بيروت –لبنان
9. عامر زيد كاظم الوائلي، (2018)، الإصلاح الديني، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق
10. طهاري محمد، (2007)، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس
11. عمارة محمد، (2007)، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، (ط2)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
12. فهمي جدعان، (1998)، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، دار الشروق، الإسكندرية
13. هنري لوزيير، (2018)، صناعة السلفية، دار روافد الثقافية ناشرون، بيروت لبنان
14. هنري لا ووست، (1995)، نظريات الشيخ ابن تيمية في السياسة والأخلاق، دار الأنصار، القاهرة.
15. واثقي مصدر، (1968) السيّد جمال الدين الحسيني، مؤسسة النهضة العربية، طهران.